

مع آخر* رحالة أوربي
يعبر الجزيرة العربية على ظهر بعير

رحلة عالم النبات الدنمركي باركلي راونكاير
عام ١٩١٢م الموافق ١٣٣٠هـ

لخصها عن الانجليزية الأستاذ:
السيد أحمد مرسي عباس



آخر رحلة في قوافل الإبل يسجلها أوروبي في وقت لم يكن الملك عبد العزيز قد استكمل سيطرته بعد على جميع أرجاء الجزيرة العربية ـ وكانت حائل ـ بدعم من الأتراك ـ في حرب مستمرة ضده، وكانت الاحساء في قبضة الحامية التركية التي عملت على انتشار الفوضى وانعدام الأمن ـ لقد جاء هذا الأوروبي من الدنمرك مبعوثاً من الجمعية الجغرافية الدنمركية، لكي يبحث عن قاعدة لبعثة علمية دنمركية، تأتي لدراسة الصحراء الجنوبية الكبرى للجزيرة العربية، والتي كانت مجهولة تماماً في ذلك الوقت، وحصلت الجمعية على إذن الحكومة العثمانية بالذهاب إلى الاحساء وزودت مبعوثها الرحالة بالآلات اللازمة للمساحة وأجهزة التصوير، وأجهزة قياس الحرارة والضغط الجوي، وكذلك بإرشادات وتعليمات، تقضي بأن يذهب إلى البحرين ومنها إلى القطيف أو العقير، ومن هناك يسافر إلى الهفوف لدراسة واحة الاحساء ثم يتوغل غرباً وجنوباً بأقصى ما يستطيع لدراسة تلك المناطق.

وصل إلى القسطنطينية وركب قطار الأناضول حتى أولو قشلة على السفح الجنوبي لجبل بلجار، ثم ركب عربة إلى طرسوس ثم قطار مرسينا ــ أطنه حتى وصل إلى مرسينا ومنها أبحر إلى الاسكندرونه حيث استأجر عربة إلى حلب، ومنها في عربة أخرى إلى بغداد عن طريق وادي الفرات وأقام أسبوعين في بغداد استطاع خلالها تدبير خادم عربي مسيحي من الموصل يدعى حنا، سبق له الترحال في خدمة الأوروبيين في كردستان والعراق وايران ولكنه اتخذ اسماً مسلماً ــ علياً ــ في صحبة الدغمركي، وركب معه أحد بواخر شركة لينش العاملة في نهر الدجلة يوم ١٦ يناير ١٩١٢م في طريقها إلى البصرة.

وصل الرحالة البصرة يوم ٢٢ يناير وحظي بعناية حسن رضا باشا والي البصرة العثماني وأسبغ عليه حمايته، واشترك معه في وضع خطط الرحلة المقبلة ــ ولما كانت هناك ظروف سياسية خاصة في شرق الجزيرة العربية سببت متاعب جمة للأتراك في الأحساء فقد لزم إحداث تعديلات في الخطة الأصلية، فبدلاً من السفر إلى الاحساء عن طريق البحرين، بات لزاماً أن يسافر إلى الكويت معتمداً على التوصيات التركية، وأن يقنع حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح بالسماح له بالسفر جنوباً وبطريق البر إلى الأحساء وقد تم ترتيب كل شيء لهذه الغاية ــ ثم اتخذ زياً عربياً بناء على نصيحة العديد من الناس.

غادر البصرة يوم ٢٧ يناير سنة ١٩١٢م (٦ صفر ١٣٣٠هـ) مزوداً بخطابات توصية، وجواز سفر تركي لاستخدامه في منطقة الأحساء ــ ووصل إلى الزبير، حيث حظي بكرم ضيافة الثرى العربي عبد الوهاب المنديل وبهرته الزبير بطابعها العربي النجدي، إذ أن أغلب السكان من العرب النجادة وبخاصة العاملون في قوافل التجارة لأن الزبير ملتقى طرق القوافل من شرق ووسط الجزيرة العربية ويمر بها جميع مبعوثي الشيوخ العرب في طريقهم من والى حاكم البصرة التركي، ويتفرع منها طريقان هامان للقوافل أحدهما إلى الكويت حيث يتفرع إلى القطيف وإلى الزلفى والآخر يتخذ مساره في وادي الرمة إلى بريدة ــ فالزبير على اتصال دائم بنجد، والتأثير الوهابي واضح جداً إذ يلاحظ قلة عدد المقاهي وانخفاض عدد المدخنين بعكس البصرة تماماً.

وفي صباح اليوم التالي قام عبد الوهاب المنديل ــ ومن ماله الخاص ــ بتزويد الرحالة بالأرز والخبز واللحم وحملت الخيول واندفعت في طريقها إلى الكويت ــ وصلت القافلة الصغيرة إلى صفوان بعد الظهر حيث توجد قشلة تركية تضم عشرة جنود وهي آخر نقطة تحت الإدارة التركية، وبعد استراحة ملئت خلالها القرب بالماء استؤنفت الرحلة ثم توقفت عند الغروب لإعداد الطعام وإطلاق الخيول لترعى، ثم عاودت المسير حتى منتصف الليل وفي الصباح استؤنف المسير مروراً بمضارب المنتفق[1] على بعد ٢٠ كيلو متراً من الجهراء ــ وصلت القافلة إلى مدينة الجهراء واستراحت في ظل قلعة مبارك الطينية، ولفت الانظار مرور العرب المنتظم فرادى أو جماعات يسوقون دوابهم المحملة بالأثقال مما يدل على استتباب الأمن في هذه البقعة عما هو معتاد في الجزيرة العربية. وصلت القافلة أطراف الكويت بين الثامنة والتاسعة مساءً والمدينة نائمة ومضارب الخيام خارجها كثيرة ويشاهد على وميض نيرانها السكان وهم جالسون يحتسون القهوة وكذلك الدواب الرابضة حولها ــ دخلت القافلة المدينة وأخذت تتحسس طريقها في الظلام حتى وصلت إلى قصر الشيخ مبارك وهو بناء شبيه بالقلعة يبلغ ارتفاعه بين ثمانية وعشرة أمتار يخترقه ممر ضيق كادت الخيول المحملة بالأمتعة تسده تماماً وامتلأ الممر بالرجال المسلحين ورفع بعضهم المشاعل والفوانيس وأخذوا خطابات التوصية الموجهة إلى مبارك وانتظرت القافلة بعض الوقت حتى عاد أحد رجال مبارك الثقات واسمه محمد، فسمح للقافلة بالمرور عبر بوابة منخفضة إلى ممر آخر مظلم بين صفين من الحراس المدججين بالسلاح، فوصلت إلى فناء تحيط به مجموعة مختلطة من الأبنية، حيث نزلت القافلة في إحداها وخصصت لها غرفة فرشت بالسجاد فوق الحصير الذي يغطي الأرض، ثم جاء عبد حبشي يحمل صينية مملوءة بصحاف اللبن والخبز والتمر وجاء معه محمد ليعبر عن الاعتذار نيابة عن الشيخ مبارك[2] عن عدم تقديم وجبة كاملة لأن العشاء انتهى في الساعة السادسة ــ وأخذ محمد أثناء تناول الطعام ــ ومعه رجل آخر من رجال مبارك ــ يمطران الدنمركي بوابل من الأسئلة: من أنت؟ ومن أين أتيت؟ وإلى أين؟ أنت عميل للانجليز أو للألمان؟ لماذا نزلت ضيفاً على الشيخ ولم تنزل على الوكيل السياسي الانجليزي؟ (الكابتن شكسبير وقتئذ) وجميع هذه الأسئلة تجيب عليها خطابات التوصية.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ الدغركي ورفيقه على صـوت العبد الذي أحضر طعام الافطار المكون من الشاي واللبن الساخن والخبز والعسل، ثم جاء محمد ليعلن أن الشيخ مبارك مستعد لاستقباله فذهب ورفيقه إلى الشيخ مروراً بقنطرة تصل بين السراى أو بيت الحكومة وبين قصر الشيخ ـ كان مبارك وهو شيخ في الثالثة والسبعين يجلس ونظره إلى البحر ويحيط به حرس من ستين رجلاً مسلحين جيداً، يجلسون على الأرض على مسافة ضئيلة منه بينما جلس الشيخ على كرسي ذي مسندين يرقب منظر الأوروبي القادم في زي عربي والذي ليس هو انجليزياً ولا ألمانياً، وإنما جاء في ظل الحماية الخاصة للحكومة التركية، واستقبل الشيخ ضيفه استقبالاً لائقاً وأخذ يوجه إليه الأسئلة المفعمة بالشك وعدم الثقة، وكانت هي نفس أسئلة الأمس مع تكرارها، وخلطها حتى يقع الدغركي في أي تناقض وخاصة من ناحية الأمور السياسية إذ لم يستطع أن يتجاهل مشاعره الودية حيال الأتراك وفي نفس الوقت عبر عن ميوله نحو الانجليز مما بذر الشك في نفس مبارك ـ وانتهت المقابلة بأن وعده مبارك بأن يدبر له رجلاً من قبيلة العجمان ليأخذه إلى القطيف والهفوف ثم أصدر أوامره إلى محمد ليكون تحت إمرة الدغركي في كل شيء وأن يصاحبه في التجوال في المدينة.

وكان قصر الشيخ مبارك مكوناً من ثلاثة أقسام أولها مقر إقامة الشيخ والحريم على مرتفع من الشاطىء وثانيها مساكن الحرس والخدم الذكور والعبيد ومنازل الضيوف على منحدر خلفي وثالثها السراى أو مبنى الحكومة فيقع على الشاطىء نفسه، وكان الشيخ يخرج كل صباح من جناحه إلى السراى حيث يقف على حراسته حوالي ٥٠ حارساً مدججين بالسلاح ويتخذ مقعده في الفرانده المواجهة للبحر حيث يقضى ساعة في إنجاز مراسلاته ويسمع الخطابات تقرأ عليه ويملى ردوده على السكرتير، وبعد الفراغ منها يغادر السراى في عربة سوداء تجرها خيول سوداء ذات أردية حريرية تحمله إلى أحد المنازل في السوق حيث يستقبل الزوار ويفصل في الأمور والقضايا؛ لأن الزيارات في القصر مقصورة على أهل الثقة والحظوة ويسير الحراس أمام العربة أما خلفها فيسير عبد ضخم فوق حصان أبيض ويحمل بندقية موزر جاهزة للإطلاق، ويخرج الموكب مخترقاً أطول شارع في السوق ويتوقف العمل لحظات لكي يسلم كل إنسان على الشيخ، وعند وصول العربة إلى مقر الشيخ في السوق يترجل إلى الد خل وينتشر الحراس في

السوق ، وعند انتهاء الشيخ من أعماله في السوق يعود إلى القصر ليجلس في الفراندة حتى وقت الظهيرة وعند الغداء يسرع العبيد بصواني الطعام يتصاعد منها البخار، يلي ذلك هدوء قد يطول حتى العصر ينام خلاله الشيخ بل قد تنام المدينة بأكملها، ويصحو القصر على طرقات طحن القهوة في الهاون النحاسي وتعود الحركة ويستعد الجميع لخروج الشيخ من الحريم إلى السراى ويتخذ مجلسه على طنفسه في نهاية إحدى غرف الاستقبال بينما يتوافد الضيوف والوجهاء للسلام والتحية ويجلسون على الديوانيات المرصوصة على الجوانب ويدخل عبد أسود يحمل كمية من الفناجيل في يده اليسرى ودلة القهوة النحاسية المصنوعة في الاحساء في يده اليمنى ويوزع القهوة على الجميع بالترتيب ــ وبعد ساعة يخرج مبارك مرة أخرى إلى السوق ولا يعود إلا عند الغروب ويتناول العشاء بعد الصلاة مباشرة وعندما يحل الظلام يشعل الحراس النار عند الأبواب والأركان ــ وهكذا تمضي الأيام والليالي في قصر مبارك .

وموارد شيخ الكويت لا تأتي من الضرائب المباشرة، وإنما من مكوس الجمارك وإتاوات السوق فالسوق والميناء لهما أهمية تجارية وسياسية وحجم المرفأ لا يتناسب مع حجم نشاط السفن فليس هناك سوى الزورق البخاري البريطاني الذي يلقي مراسيه على بعد نصف ميل من الشاطيء وتذهب إليه عشرة قوارب لتفريغ حمولته ويذهب مدير جمارك الشيخ على رأس هذه القوارب ولا يتم التفريغ إلا بإشرافه وعندما تعود القوارب تدخل البضائع في مستودعات الجمارك الملاصقة للسراى ــ ويوجد ثلاثة مدافع كبيرة يرجع تاريخها إلى عهد البرتغاليين عندما كانوا يمارسون التجارة والقرصنة في الخليج ــ وهذه المدافع قائمة بين مستودعات الجمارك والشاطيء، وتستخدم لإطلاق التحية في المناسبات الجديرة بالاحتفال كان آخرها عندما تلقى الشيخ وساماً تركياً عرفاناً بمعونته المادية للحكومة التركية، خلال حربها ضد إيطاليا في طرابلس ليبيا. والكويت غنية بالمراكب البحرية اللازمة لصيد اللؤلؤ في وقت الموسم وتستطيع تلك المراكب أن تصل إلى أماكن تعجز الزوارق البخارية عن ارتيادها وتملك الكويت حوالي ٥٠٠ مركب من ذلك النوع ويعمل في صيد اللؤلؤ مابين ١٠ إلى ١٥ ألف رجل ولما كانت الكويت صغيرة ولا تستطيع توفير هذا العدد من الرجال الأشداء فقد أتى الكثيرون من وسط الجزيرة والعراق، ففي شهر ابريل مع وقت الموسم تصل قوافل الشباب

من واحات نجد إلى الساحل بعد رحلة خطيرة وشاقة في الصحاري ليعملوا في مهنة ليست خالية من الخطر، وبعيداً عن أوطانهم، ويعود كل منهم ـ بعد الموسم ـ بثوبين فقط وهو ثمن زهيد مقابل عمل في عرض البحر بين الصخور والشعب المرجانية تحت وطأة الحرارة الشديدة والرطوبة الخانقة والطعام المتواضع والأجر الأكثر تواضعاً.

لاحظ الرحالة أن الأمن مستتب تماماً في الكويت بخلاف باقي بلاد الخليج، وذلك لأن السلطة في يد رجل واحد يملك الإرادة والقوة لسحق أية معارضة ومن أجل ذلك لا يقتني أهل الكويت الأسلحة، وبالتالي فتجارة الأسلحة لا قيمة لها ـ والتجارة والملاحة في الكويت في أيدي البريطانيين، وتحتكر حركة البواخر شركة الهند البريطانية للملاحة والتي تصل بواخرها أسبوعياً ويدير الهنود وكالاتها ـ ولا توجد حدود مرسومة للكويت، إلا عن طريق القبائل التي تعترف بسلطة مبارك. والسكان يتكونون من عنصري العرب والايرانيين الوافدين من بوشهر وما حولها، ويتميزون بزيهم الخاص: السراويل البيضاء والمعطف الأزرق والعمامة السوداء، أما العرب فتتجسد فيهم علامات الوهابية ـ والكويت أهم مدينة تجارية على الساحل الشرقي للجزيرة العربية، لأن أكبر قسم من تجارة داخل الجزيرة العربية يمر بالكويت ـ كما أنها مفتاح ما بين النهرين، ومفتاح وسط الجزيرة العربية؛ لأنها المدينة الوحيدة بين شط العرب ورأس مسندم، كما أنها دولة مستقلة وهي البقعة الوحيدة التي يصل عن طريقها سكان وسط الجزيرة العربية إلى البحر، لأن الاحساء يحتلها الأتراك، وفي الجنوب تمنع صحراء الربع الخالي الحركة التجارية ـ أما شمال الجزيرة وغربها فخاضعان للحكم التركي ويتجنب التجار المرور في الأراضي التركية، لأن السلطات التركية تمنع مرور الأسلحة وهي أدوات لازمة للقوافل لحماية نفسها من هجمات البادية وبذلك أثبتت الإدارة التركية حماقتها وقصر نظرها ـ لذا كانت الكويت مركز تجمع العرب القادمين من داخل الجزيرة العربية، إذ يمكنهم الوصول إليها بدون أن يتحرش بهم أحد، أو يسألهم عما في حوزتهم من أسلحة وذلك يرجع إلى سلطة شيخ الكويت القوية. والسوق في الكويت ليس مجرد مكان لممارسة التجارة، وإنما نقطة انطلاق القوافل فعندما توشك قافلة على الرحيل يبدأ أصحاب الإبل ودوابهم في التجمع في الجزء

الجنوبي من السوق والذي يؤدي إلى الصحراء، ثم يأتي التجار ببالات السلع التي ستحمل إلى داخل الجزيرة العربية ـ ويستقبل السوق البدو القادمين من الداخل لبيع إنتاجهم من الأغنام والجمال وشراء مايلزمهم من المواد الأخرى ـ وقد عين الشيخ مبارك رجلاً يقوم بجباية الضرائب عن كل حيوان يباع في السوق مثل ٤,٥ آنة عن كل خروف ومن روبية إلى أربع روبيات عن كل حمار حسب الحجم ونسبة ١٠٪ من ثمن كل بعير سواء كان بعير ركوب أو بعير أثقال ـ ويجاور السوق الكبير سوق آخر للفحم المجلوب من إيران، وعلى مقربة منه يوجد في الشارع الرئيسي دكان لبيع الانجيل وهو تابع للارسالية الأمريكية، يعرض طبعات عربية من المؤلفات المسيحية ونادراً ما يصادف أن يعبر إنسان عربي عتبة هذا الدكان، ويقع أكبر مسجد في الكويت على الجانب الأيسر من الشارع المتفرع من السوق وعلى منتصف الطريق إلى السراى، وتوجد مساجد أخرى أصغر في جميع أرجاء المدينة، وتقع وكالة البواخر الانجليزية في شارع ينحرف يميناً من الشارع الرئيسي المؤدي إلى السراى، وكذلك تقع الإرسالية الأمريكية في هذا الشارع، وهي بناء جيد كان يشغله مبارك قبل أن يحوز السلطة والثروة التي لديه الآن، أما البيوت فهي من طابق واحد مبنية من الطين الجاف وشبابيكها لا تطل على الشوارع وأبوابها مغلقة.

كان الشيخ مبارك قد وعد الرحالة بتدبير رجل من قبيلة العجمان ليأخذه إلى القطيف ولكنه عاد وقال له إنه بات مستحيلاً العثور على مثل ذلك الرجل ونصحه بركوب القارب البريطاني إلى البحرين، فطلب الدنمركي أن يأذن له بالسفر في صحبة القافلة المسافرة إلى بريدة ثم إلى الرياض والهفوف، فوافق الشيخ على الاذن له بالسفر، وأمكن من خلال مساعي الوكيل السياسي البريطاني في الكويت الكابتن و. هـ. شكسبير أن يتفق مع عبد العزيز بن عثمان (ابن أمير الزلفى السابق) على أن يرافق الدنمركي في رحلته من الكويت إلى بريدة ثم عنيزة فالرياض فالهفوف فالعقير، وعلى أن يضع تحت إمرته ستة جمال لنقله وخادمه على وأمتعتهما، وتم الاتفاق على الأجر وقام الشيخ مبارك من جانبه بتزويد الدنمركي بأقوى خطابات التوصية الموجهة إلى بريدة وإلى ابن سعود في الرياض وأصبح كل شيء جاهزاً للرحيل.

وخلال الانتظار الذي دام أياماً طويلة حتى تسافر القافلة أخذ يمضي وقته في السوق يتحدث إلى البدو ورجال القوافل ويحاول جمع المعلومات عن الكويت والأراضي الداخلية في الجزيرة العربية، ولم يفز بما يشفي غليله، فأخذ يصيغ أسئلته بأسلوب يبتز به المعلومة من زلة لسان المواطن الموجه إليه السؤال ـ وكان يوجد أعداد غفيرة من أبناء داخل الجزيرة العربية في السوق وفي داخل قصر مبارك، الأمر الذي زاد معلوماته بل كان يوجد مجموعة رجال من طرف ابن الرشيد أمير حائل كانوا قد حضروا ومعهم رجل مريض كي يعالج في المستشفى الإرسالي الأمريكي بعد أن حملوه مئات الأميال عبر جبال ورمال وانتظروا بضعة أيام في الكويت دون أن يشفى فعادوا به ـ كذلك نزل في قصر مبارك تاجر لؤلؤ بحريني يدعى جعفر، جاء خصيصاً ليبحث عن زوجة جديدة ولما كانت غرفة الدغمركي مجاورة لغرفة البحريني فقد أحاط الأول بكل تفاصيل مفاوضات اختيار العروس وكانت مدار الحديث في جلسة السمر في المساء أثناء شرب القهوة.

وفجأة ـ أصيب الدغمركي بمرض وانتشر الخبر ـ فجاء عبد العزيز بن عثمان (الذي سيرافقه بجماله في الرحلة) ليخبره أنه إذا تسبب في تعطيل القافلة عن السفر بسبب المرض فعليه أن يدفع جميع نفقات القافلة الممثلة في علف البعير وأجرة الجمالين طوال فترة الانتظار ـ ولكن الرحالة الأوروبي أجابه: إنه سعيد للغاية أن يسمع أن القافلة جاهزة للرحيل ـ وإن كانت لم ترحل فعلاً إلا بعد أسبوع حيث استرد الرحالة صحته وقوته.

أزفت لحظة الرحيل صباح يوم ٢٤ فبراير ١٩١٢م (٦ ربيع الأول ١٣٣٠هـ) وقام بتوديع الشيخ المضياف مبارك وحملت الأمتعة على الجمال في فناء القصر وسارت حتى الجزء الجنوبي الغربي من السوق حيث مكان تجمع القافلة ـ سارت القافلة لمدة نصف ساعة في اتجاه الجنوب ثم توقفت لدى مجموعة من الآبار ثم عادت إلى المسير واستأذن عبد العزيز في العودة إلى الكويت بحجة أنه نسي أن يشتري ملحاً للرحلة ولكي يودع زوجته على أن يعود في المساء ـ وفي صباح اليوم التالي تحركت القافلة نحو قرعة الكويت ومنها إلى تلال معدنيات وتوقفت في الساعة ١٠,٤٠ حتى يصل باقي القافلة وفي اليوم التالي بدأ وصول أعراب مع جمالهم من

الكويت ليلحقوا بالقافلة ولم يعد عبد العزيز وفي وقت العصر وصل رجل موفد من الدويش زعيم قبيلة مطير يطالب بأن تدفع القافلة ريالاً عن كل بعير كضريبة مقابل السماح للقافلة بالمرور في أراضي القبيلة التي تسيطر على جميع الآبار الواقعة بين الكويت والزلفي وبدأت المفاوضات بين المطيري ورجال القافلة صاخبة نظراً لارتفاع القيمة المطلوبة دون الوصول إلى شيء ـ ظلت القافلة في مكانها حتى وصل كل أفرادها ـ وهم ٥٠ رجلاً يصحبون مائة بعير ـ وأخيراً عاد عبد العزيز بعد غروب يوم ٢٨ فبراير (١٠ ربيع الأول) في هيئة المحارب المستعد يحمل بندقية مارتيني وسيفاً.

سارت القافلة في اليوم التالي في الاتجاه الجنوبي الغربي حتى بئر الطويل حيث ملئت القرب بالمياه استعداداً لمسيرة ستة أيام قادمة تنعدم فيها المياه ـ حتى الوصول إلى بئر الصفا، وقد استمر ملء الجلود حتى الليل وقبل شروق شمس اليوم التالي بساعتين أوقظت القافلة على صياح وضجيج إذا اختفت مجموعة من الخيول الواردة من العراق وهي في طريقها إلى نجد حيث تباع بأثمان مرتفعة إذ انشغل أصحابها بملء القرب وشرب القهوة والمسامرة وأهملوا حراسة خيولهم بل لم يفكروا في تقييدها فانتهزت الخيول الفرصة وهربت ربما في اتجاه الكويت فهرع رَكّبة الجمال في كل الاتجاهات فوراً وأمكن استعادة الخيول بعد عدة ساعات.

ازدادت حدة المطيري في مطالبته بالضريبة وأخذ يؤكد كلماته بإثارة تراب الأرض بعصاه في وجه الرجال حوله، ولكن عبد العزيز قرر وضع حد لهذا النقاش بأن رفع بندقيته إلى رأس المطيري وأعلنه أنه سوف يطلق النار إذا استمر في كلامه ـ كانت عملية مسرحية ولكنها أفادت. كان رجال القافلة يكررون أسئلتهم للدنمركي: من أنت؟ وإلى أين؟ البعض يظن أنه انجليزي والآخرون يؤكدون أنه عثمانلي أو فرنساوي أو موسكوى ـ وهذا كله لم يهم ـ بل المهم كلمة «نصراني» مما أدى إلى صعوبة القيام بأي عمل علمي يستخدم فيه الأجهزة العلمية نظراً لتأثيرها المؤلم على رفاق السفر.

ولما كانت القافلة متوجهة إلى بريدة فسوف يتفرق أعضاؤها كل حسب وجهته، ففريق

سيذهب إلى عنيزة وفريق إلى الزلفي وبعض التجار إلى شقراء.

وصلت القافلة إلى بئر أم قادر الناضبة يوم ٢ مارس (١٢ ربيع الأول) ثم إلى قرعا يوم ٣ مارس ثم قارة يوم ٤ مارس حيث الأرض غنية بالكمأة (نبات الفقع) وجمعت كميات كبيرة منه لطعام القافلة وأخذ خادم الدغمركي يطبخ له الفقع بالكاري مما أدى إلى استهلاك كمية الفحم التي اشتراها من الكويت، فلجأ إلى بعر الجمال كوقود ولكن البعر لا يصلح لإنضاج الخبز ـ وكانت عادة القافلة أثناء إناخة الاستراحة أن تطلق الإبل لترعى في حراسة الرجال وبعد صلاة المغرب تقدم وجبة الطعام الرئيسية وتعود الإبل إلى وسط المخيم وتنيخ فوق الأرض وتربط الساق الأمامية لكل بعير حتى لا يقوى على النهوض أو الفرار، وترتب السروج حول المخيم ويصطف الحراس من رجال القافلة خلفها طوال الليل ـ وفي ليلة ٢٤ مارس ندت صيحة وتلاها ضجيج طويل وهرول كل انسان هنا وهناك بلا هدف أو غرض، فهذا أمسك بندقية، ولكنه نسي الذخيرة والآخر أمسك الذخيرة وليس لديه بندقية ولم يتضح سبب هذه الفوضى، فقد توهم الحراس شيئاً قد يكون هجوماً وتبين أخيراً أن جماعة من الركبان خرجوا من الظلام أوضحوا أنهم بادية من مخيم مجاور.

استؤنف السير يوم ٥ مارس في اتجاه جنوبي غربي قاره وانضم الركبان الجدد إلى القافلة، ولكنهم حرصوا على السير على مسافة بعيدة من الجناح الأيمن، وفي السبعان توقفت وقبل الغروب بساعة وصلت أنباء قدوم راكب نحوهم كما شوهد بدو في الجنوب فأسرع كل فرد إلى سلاحه ووسط الاضطراب ركب ثمانية من أنشط الرجال خيولهم غير المسروجة وانطلقوا بأقصى سرعة ـ ومن بينهم الهمام عبدالعزيز ـ وعاد الرجال بعد الغروب سالمين بعد أن تبينوا أنه بدوى من الجنوب من قبيلة مطير وليس لديه نية عدوان ـ تركت القافلة السبعان يوم ٦ مارس ووصلت الدبدبة الغنية بالفقع فتوقفت وضربت الخيام وانسحب الركبان الجدد إلى اليمين مواصلين سيرهم إلى الصفا مما أثار شكوك عبد العزيز فقد فكر أنهم قد سارعوا إلى الصفا بعد أن اطلعوا على قوة القافلة ليبلغوا بنى قبيلتهم هناك، فأسرع رجال على الخيول عديمة السروج واختفوا في الصحراء في أثرهم وبعد ساعات عادوا يسوقونهم إلى المخيم وتوجب على كل فرد في القافلة أن

يراقبهم وأن يرعى كل شيء قابل للسرقة كما وضعت حراسة على الخيول.

غادرت القافلة الدبدبة يوم ٧ مارس مع إحكام الملاحظة على الأغراب وقام تجار الخيول بقيد خيولهم إلى سروج جمالهم وتركا حصانين يرعيان وفجأة قفز رجل على ظهر أحدهما وهمزه لينطلق بأقصى سرعة ــ إنه المطيري المطالب بالضريبة أراد الفرار وفي نفس الوقت يفوز بحصان فصدرت صيحة فزع عن صاحب الحصان اخترقت القافلة من أقصاها إلى أقصاها فأخذ راكبو الجمال يطلقون الرصاص لغلق طريق الهرب ومضت طلقات البنادق في كل الاتجاهات فجمح الحصان وتقهقر ورمى بالمطيري من فوق ظهره ليسقط على الشجيرات.

وصلت القافلة إلى بئر الصفا وتوقفت وانهالت الخيول على الحشائش النابته حول البئر بشهية وعينت الحراسة على المرتفعات المحيطة بالوادي الذي يقع فيه البئر ورغم هذه الاحتياطات الأمنية فقد ساد القلق وترددت كلمة «جم» أي أتى المهاجمون وجرى ملء القرب بالماء، والرجال يغنون والنيران مشتعلة لإعداد القهوة ــ وفجأة يقف رجل فوق صخرة إلى الجنوب الشرقي وسرت صيحة خوف التقطها الحراس القريبون والبعيدون وفي لحظة هرول الجميع ناحية البئر في اندفاع عنيف وتوقف الغناء، وعلت صيحات الذعر من فم إلى آخر تنقل أخبار قدوم جماعة من الركبان من الجنوب الشرقي وجرى الرجال هنا وهناك بحثاً عن اسلحتهم وصعدوا إلى المرتفعات يحتلونها، وأثناء ذلك وصل قائد الجماعة المقبلة إلى الصخرة راكباً بعيره وفور إلقاء نظراته على أعراب القافلة وهم يجرون في إتجاهه نزع عباءته وأخذ يلوح بها عالياً فوق رأسه علامة أن القادمين ليسوا أعداء ــ لقد كان هؤلاء الركبان أربعة رجال بعثهم الإمام في الرياض إلى الشيخ مبارك في الكويت وإلى والى البصرة والى أمير حائل الذي يشعل الحرب القبلية في صحراء الهجرة شمال بئر الحفر ــ نزل القادمون إلى البئر وأناخوا وربطوا مطاياهم ووضع قائدهم سيفه على الأرض وجلس وتحلق حوله رجال القافلة تشوقاً لسماع الأخبار، وتم تحرير الخطابات وقدمت كميات ضخمة من التمر والقهوة وبعد ساعة رحل الركبان بعد أن انقسموا إلى جماعتين: إحداهما اتجهت إلى الحفر، والأخرى ذهبت إلى الكويت.

خرجت القافلة من وادي الصفا إلى وادي شبيري ثم خيمت في وادي جو الثور وهنا استأذن المطيري في الذهاب، واختفى في الفلاة يحمل الضريبة التي جمعها من القافلة ومرتدياً ثوباً جديداً وتنفست القافلة الصعداء أن تخلصت منه ــ وفي يوم ١٠ مارس وصلت القافلة إلى الحد الفاصل بين الصمان ورمال الدهناء، فأناخت وتبين ضياع جمل أخذوا في البحث عنه طوال الليل، وفي الصباح تحركت داخل الصحراء الرملية الحقيقية والكثبان العريضة وصلت القافلة إلى الارطاوية يوم ١٢ مارس (٢٣ ربيع الأول) وأعلن ركبان الاستكشاف الذين يتقدمون القافلة عن تواجد أغراب لدى بئر الارطاوية فأسرع الباقون يشرعون أسلحتهم ويصيحون مما جعل الأغراب يفرون من عند البئر تاركين بعض الحمير فأخذت القافلة تلك الحمير معها لعلها تجد أصحابها في الزلفي ــ وفي اليوم التالي انفصل الفريق المتوجه إلى شقراء عن القافلة بينما استمر الباقون إلى وادي السبلة حيث توقفوا ــ وعند الغروب هبط اثنان من المراقبين يعلنان عن تواجد شيء يتحرك في السبلة فأمسك الدغمركي منظاره وبندقيته وصعد إلى قمة أقرب تل وشاهد شيئاً قاتماً يزحف على سهل السبلة وفي اتجاه القافلة ولكن هذا الشيء بدأ يتفرق إلى عدة أشياء منفصلة فعرف أنه عبارة عن ٢٣ بعيراً فأسرع رجال القافلة يسوقون الجمال إلى داخل المخيم وانتشر حملة البنادق وسط الوادي استعداداً للقتال واقترب الغرباء وصعدوا الصخور المحيطة بالوادي وخفتت الصيحات ترقباً لأول رصاصة تطلق، وبرز أول بعير للقادمين وبمجرد أن أبصر رجال القافلة المسلحين وبنادقهم مصوبة تجاهه حتى نزع عباءته ولوح بها فوق رأسه علامة السلام ووصل القادمون بأكملهم وجرى إعداد القهوة ولكن مظهرهم لا يبعث على الاطمئنان إذ أنهم يحملون أثقالاً وليس معهم عائلات ومسلحون جيداً ويصحبون قطيعاً من الإبل الشابة السمينة غير المسرجة إلى جانب الإبل التي يركبونها ــ كل هذا يعني أن القافلة التقت بواحد من أعتى قادة الغزو القادمين من جنوبي عنيزة والعائدين إلى بلادهم بعد حملة غزو في الدهناء حيث استولوا على هذا القطيع الرائع من الجمال واستشعر الدغمركي الخطر لأن القافلة نقص عدد رجالها بانفصال رجال شقراء صباح نفس اليوم وكذلك غياب القيادة القوية بغياب عبد العزيز الذي سبق إلى الزلفي لزيارة إحدى زوجاته المقيمة هناك ــ لم يمض وقت طويل حتى بدأ الهياج يتحول إلى شجار بين أحد اللصوص من قبيلة مطير

وأحد رجال القافلة وهو من عتيبة بسبب نقاش حول أي القبيلتين تملك الغزاة الأقوى وحول عدد الأنعام المسروقة في العام الماضي من مكان إلى آخر، وتطور النقاش إلى المفاضلة بين الاغتيال وسرقة الأغنام وتفرع إلى أمور أخرى مثل معارك العام الماضي بين القبائل، أو بتفسير أدق قضايا الدين ونشطت القرائح وجلجلت الأصوات عالية متحشرجة مصحوبة بإشهار البنادق وكادت تنشب معركة لولا أن عاد زعيم اللصوص إلى رشده وعاد الفريقان إلى شرب القهوة، ومضى الليل في سلام مع تشديد الحراسة اليقظة.

استأنفت القافلة مسيرتها يوم ١٤ مارس (٢٥ ربيع أول) وانفصل عنها من يريد طريق بريدة واستمر الباقون إلى الزلفي لكي ينزلوا ضيوفاً على عبد العزيز قائد القافلة الذي سبق إليها في اليوم السابق ، وتم قضاء الليل في منزل عبد العزيز ــ وفي صباح اليوم التالي تحركت القافلة إلى وادي نقرة سلطان، ثم بستان الحامدية، ثم إلى الصحراء مرة ثانية حتى وصلت إلى واحة الشماسية حيث توقفت لسقي الإبل وملء القرب من البئر.

وفي يوم ١٥ مارس دخلت القافلة وادي الرمة، ليتجه فريق من القافلة نحو عنيزة ويستمر الباقون في اتجاه بريده، ولدى اقترابها من بوابة المدينة جاء أحد رجال أمير بريدة ليقودها.

لقد نقل رجال القافلة الذين سبقوا إلى المدينة أنباء وجود نصراني في القافلة فأثارت استفزازاً ضخماً في المدينة، حتى هرع بعض المتزمتين إلى أسلحتهم لولا أمير بريدة الذي يعلم جيداً أن الرحالة يسافر في حماية أمير الكويت وفي حوزته خطابات توصية إلى جميع أمراء نجد.

نزل الدنمركي ومعه عبد العزيز وعلى في ضيافه الأمير في القلعة، وخصصت لهم غرفة في مكان الضيافة شاركها فيها رجل من طرف الأمير يدعى فهداً لحراستها ومراقبتها في نفس الوقت ــ ثم جاء مطوع الأمير ــ أو مستشاره الديني ــ واسمه مبارك ــ وحياهم بأدب جم وطلب من على أن يخرج معه، وبعد برهة عاد ليعلن أن الأمير يريد مقابلتها فخرجوا إلى

السراى ومنها إلى قاعة اجتماعات الأمير حيث أخذوا مجلسهم إلى جواره على الأرض المفروشة بالحصر والسجاجيد ــ كان الأمير فهد بن معمر رجلاً متوسط العمر لا يميزه عن الآخرين أي شيء ــ أخذ يسأل الدغمركي : من أنت؟ من أين أتيت؟ ولماذا أتيت إلى نجد؟ هل معك أية كتب؟ هل أنت انجليزي؟ هل تعرف والى البصرة؟ هل تلتقط صوراً فوتوغرافية؟ هل أنت طبيب؟ هل تجمع أحجاراً أو نباتات من البلاد؟ ماذا تبغى من ابن سعود؟ هل كنت في مكان ما هنا في القصيم حيث يوجد الذهب، هل تدون مذكرات في مفكرة؟ كم لبثت مع مبارك؟ مااسم المكان الذي يوجد فيه الذهب في القصيم؟ كيف تجرؤ على الحضور إلى بريدة؟ لا يأتي نصراني إلى هنا ــ فمن أرسلك؟ وغير ذلك واستمر الأمير في أسئلته وقتاً طويلاً يغيرها ويخلطها ويعدّلها لعل الدغمركي يقع في أي تناقض ــ ويبدو أنه لم يفتح رسالة مبارك التي توصيه به خيراً ــ ثم تحول الحديث إلى موضوعات أخرى فاستفسر عن الرحلة وخطتها فلما علم أن الدغمركي يرغب في الذهاب إلى عنيزة ثم الرياض ومنها إلى الاحساء اعترض قائلاً إنه لن يسمح بذلك، وعليه أن يعود إلى الكويت من حيث أتى فأخبره الدغمركي أن الأمر سيكون على مسئوليته شخصياً إذا خالف مباركا أو ابن سعود ثم أطلعه على الرسائل التي معه والموجهة إلى الرياض ــ ثم سأله عما إذا كان يحمل رسالة إلى أمير عنيزة فأجاب بالنفي فوعده بإعطائه خطاباً يقدمه لهذا الأمير ــ ثم أخذ الأمير يستفسر عن أخبار الحرب التركية الإيطالية في طرابلس (ليبيا) ثم سأل عليا عن مجريات الأمور في بغداد وأعطاه مجموعة من الجرائد العربية المطبوعة في القسطنطينية والتي تصل بانتظام إلى بريدة عن طريق المدينة، لأن الأمير مشترك فيها ــ ثم أخذهم فهد إلى حيث تناولوا الطعام فوق سطح القصر في صحبة رجلين من رجال الأمير ثم عادوا بصحبة فهد إلى غرفتهم.

وفي منتصف الليل جاء مبارك مطوع الأمير يسأل عليا عما إذا كان الدغمركي يحمل هدية للأمير ــ وكان الدغمركي قد تناقش مع أمير الكويت في هذا الموضوع ولكن حاكم الكويت أخبره أنه ضيف نفسه ــ أي ضيف حاكم الكويت وضيف ابن سعود وليس شيوخ نجد من يبيعون كرم ضيافتهم بالهدايا ــ غير أن أمير بريدة له رأي آخر في هذه المسألة ــ وقدم

الدنمركي مسدساً وذخيرته للمطوع مبارك ليوصلها إلى الأمير ولكن الأمير رفض قبوله بحجة أنه مسدس رديء وغير مزخرف فلا يستحق أن يكون هدية لأمير بريدة وتمت ترضية الأمير بإهدائه المنظار الذي كان الدنمركي ينوي أن يعطيه لأمير عنيزة (والذي أرسل يعلن رفضه دخول الدنمركي أرض بلاده).

كلف الأمير فهدا أن يصحب الدنمركي ورجاله إلى الرياض، وفي صباح ١٧ مارس (٢٨ ربيع الأول) تجهزت القافلة الصغيرة للسفر وقام الدنمركي وعلى بوداع الأمير وخرجت الجمال إلى الصحراء وفي صحبتهم بعض رجال من أهل الزلفي العائدين إلى بلدتهم بعد أن اشتروا بعض الأشياء التي لا تباع عندهم مثل روافع سحب المياه ــ خرجت القافلة إلى وادي الرمة وحرص الدنمركي على التقاط بعض الصور بالكاميرا المخبأة تحت العباءة وفجأة هبت ريح رفعت طرف العباءة حيث توجد الكاميرا فومضت أجزاؤها اللامعة في ضوء الشمس مما أثار دهشة أهل القافلة بل وهياجهم. واحتد النقاش بين الرجال حول أيسر الطرق الموصلة إلى الزلفي سالمين وزاد عناء رفاق الدنمركي ــ على وعبد العزيز ــ أن فهدا استطاع أن يكتشف نقاط الضعف لديهما فالأول مسيحي متنكر في اسم مسلم والثاني كان قد قتل أحد رجال ابن سعود منذ عدة سنوات فأخذ يبذل كل ما في استطاعته ليحطم روحهما المعنوية وخاصة عبد العزيز إذ ينتهز كل فرصة ويسأله عما ينتظره عندما يصل إلى الرياض ويقول لعلى إنه لا يعرف ماذا سيحدث له في الرياض. وأثناء السفر في الصحراء اختفى فهد فجأة فزاد قلق عبد العزيز وعلى وأخذا يلحان على الدنمركي أن يلغى رحلته إلى الرياض ولكنه رفض وعندما وصلوا الشماسية ليلاً وجدوا فهدا هناك وأمضوا الليل فيها بعد أن جلب فهد أرزاً ولحماً من لدى أميرها ــ وفي الصباح استأنفوا السير حتى الزلفى حيث نزلوا في بيت عبد العزيز وكانت فرصة للدنمركي لإعادة ترتيب المتاع: المذكرات اليومية والرسومات والخرائط والكاميرا فقد وزع هذه الأدوات في حقيبتين (خرجين) منفصلتين ليحملا فوق بعيره الذي يركبه حتى يضمن عدم ضياعها ــ ذهب عبد العزيز يطلب حراساً من أمير الزلفي يصحبونهم إلى الغاط، ولكن الأمير رفض ــ غادرت القافلة الزلفي يوم ٢١ مارس (٢ ربيع الثاني) متجهين جنوباً وأثناء السير

لمحوا شخصين يركبان نحوهم فتوقفوا يترقبون ظهور آخرين ولما لم يظهر أحد ذهب فهد ليقابلهما فسلماه خطاباً ثم عادا أدراجهما، لقد كان الخطاب من أمير الغاط يأمر عبد العزيز ومن معه بألا يأتوا إلى الغاط وإذا أصروا على الذهاب فعليهم تحمل ما قد يحدث ولكن القافلة مضطرة إلى اللجوء إلى الغاط نظراً لنفاد الماء فنهض فهد وقد أحسّ بخطورة الموقف وذهب ليجهز لدخولهم الغاط وأثناء غيابه تمرد علي وعبد العزيز على الدغمركي وأصرا على عدم الذهاب إلى الرياض واقترح عبد العزيز العودة إلى الكويت ثم يرسل رسالة من هناك إلى الرياض يستفسر عن إمكان السماح لهم بالقدوم إليها، فإذا وصل الإذن سافروا من هناك، ولكن الدغمركي لم يعط موافقته النهائية على ذلك وأخذ يسوّف كسبا للوقت حتى يتم اجتياز المجمعة وبعدها يستطيع أن يقرر إما أن يتوجه من المجمعة إلى الصفا أو يخترق الصحراء إلى الاحساء.

وصلت القافلة إلى خارج الغاط مباشرة، حيث كان فهد في انتظارهم وضربت الخيام وزودهم الأمير بالطعام وفي اليوم التالي غادروا الغاط إلى جبل طويق ومنها إلى الرويضة ولما أصبحوا على مشارف المجمعة تقدم فهد ليجهز لاستقبالهم ـ نزلوا في منزل للأمير ملاصق لسور البلدة وزارهم الأمير عبدالله بن عسكر الذي أخذ يتحدث مع فهد حول الأمن في الطريق لأن رجلين قتلا منذ يومين بين المجمعة وجلاجل.

غادرت القافلة المجمعة يوم ٢٣ مارس (٤ ربيع الثاني) ومرت في طريقها بواحات التويم والحوطة والجنوبية والعطار ثم واحة العودة الصغيرة، حتى وصلت إلى ثاج حيث اضطرت إلى التوقف كي تغلف بالقماش الأدوات المعدنية من المتاع والمدلاة من الجمال حتى لاتحدث أصواتاً إذا ما اصطدمت بعضها البعض فينكشف مكان مرور القافلة بين الصخور ولكن الجمال لم تتوقف عن الرغاء وفشل الجميع في تكميم أفواهها ـ استمر المسير حتى ثادق وذهب فهد ليجلب حراساً من عند أميرها وعاد ومعه عشرون راكباً وبعد مسيرة يوم آخر وصلت القافلة إلى مشارف واحة حريملا.

تحركت من حريملا صباح يوم ٢٦ مارس (٧ ربيع الثاني) في اتجاه الجنوب حيث واحة

سدوس المحصنة جيداً بالأسوار والأبراج، وتسلل الحراس واحداً فواحداً إلى داخل البلدة تاركين الدنمركي ورفاقه وحدهم ــ وبعد الظهر وصلوا إلى وادي حنيفة الذي مازال يحمل دلالات النشاط التدميري لإبراهيم باشا ــ واستراحت القافلة في أطلال العيينة التي كانت منازل سامقة جيدة البناء وعند الغروب تحركت شرقاً من الوادي مع الحذر من الوقوع في فوهات الآبار المعطلة المتناثرة في كل مكان مروراً بواحة ملجه وواحة العلب فالدرعية حتى أصبحت على مقربة من الرياض فيترك فهد القافلة ويسارع ليبلغ الامام بقدومهم.

لكن أين الامام عبد العزيز؟ لقد قيل إنه شاب في الثالثة والثلاثين من عمره ــ وقد غادر الزياض منذ يومين متوجهاً إلى جهة الغرب على رأس جيشه كي يؤدب عربان عتيبة الذين نهبوا قوافله ــ إنه حاكم قوى وجندى جسور وفي نفس الوقت يحب الاستمتاع بملذات الحياة في حدود الشريعة ويتحدى التزمت. هذه المعلومات استقاها الدنمركي من أصدقاء الامام المخلصين مما جعله يشتاق لرؤيته ــ ولكن أخبار غياب الامام خارج الرياض أسعدت عبد العزيز (الخائف من دية الدم) ــ وعاد فهد ليقود القافلة إلى بساتين الرياض وقابلهم راكب في زي عربي كامل فحياهم باحترام ــ إنه أحد رجال الامام ــ وقادهم إلى بستان يقع خارج المدينة حيث نزلوا في بيت من بيوت ضيافة الامام ــ والامام عبد العزيز لم يكن موجوداً فعلاً في الرياض وكان على الدنمركي أن يلتقي بوالده الامام عبد الرحمن عصر يوم ٢٨ مارس (٩ ربيع الثاني) وذهب مع رجاله يحيط به الحرس المسلحون إلى بستان نخيل منعزل يحيط به سور قوي يبعد حوالي نصف كيلومتر شرق سور مدينة الرياض وساروا بين النخيل إلى براحة فرشت بالسجاجيد الفارسية واتخذوا مجلسهم على السجادة وبعد برهة دخل الإمام عبد الرحمن مع حاشيته من بين النخيل وبعد التحية اتخذ الجميع مجلسهم على السجادة متكئين على مخدات وجلس رجال الحاشية في مكان بعيد ــ ودار الحديث حول الكويت وحروب الإمام ومصالح انجلترا وتركيا في الجزيرة العربية والحرب التركية الايطالية، وأخيراً حول القوى النسبية للدول الأوروبية في آسيا وأفريقيا وتفوق انجلترا على الجميع ــ وفي نهاية اللقاء وعد الامام ضيفه الدنمركي بعمل اللازم لكي ينحق بقافلة متوجهة إلى الاحساء في اليوم التالي ــ وعندما عاد الدنمركي إلى بيت الضيافة التقى بقائد القافلة المتوجهة إلى الهفوف وعلم أن الإمام أمره بالمحافظة على ضيفه وأن يحضر

من الضيف خطاب تزكية بعد وصوله سالماً وفي المساء أرسل الإمام كميات ضخمة من الأرز والسمن تكفي لأربع رحلات على الأقل هدية لضيفه ورفاقه.

في صباح ٢٩ مارس (١٠ ربيع الثاني)حملت الأمتعة على الجمال وخرجت إلى الصحراء انتظاراً لقافلة الأحساء التي بدأت تخرج في جماعات صغيرة من بوابة المدينة يتبعها الصحاب والمعارف من أهل الرياض (لوداع المسافرين)، وتحرك الركب تجاه الشمال الشرقي ومروا بمضارب بني قحطان ثم العان حيث توقفوا حتى تكتمل القافلة المكونة من ١٧٥ شخصاً ـ منهم ٣٠ يركبون البعير ومنهم ٢٠ يحملون البنادق والباقون من المشاة الفقراء من غير ذوي الأمتعة ومسلحون بالسكاكين والعصى التي اصطادوا بها الضِّباب والفقع أثناء السير ومعظم هؤلاء من الشباب المتوجه إلى البحرين لصيد اللؤلؤ ـ أثناء الانتظار هذا جاء رجلان من رجال ابن سعود إلى المخيم وحيّيا الدغمركي بحرارة واستدعيا كل رجال القافلة ليتحلقوا حولهما وقام أحدهما بإلقاء خطبة قصيرة جيدة خلاصتها أن الدغمركي صديق ابن سعود، وأن أي رجل يجرؤ على إيذائه سوف يقتل ثم عاد الرجلان إلى الرياض ـ ثم غادرت القافلة العان صباح ٢٠ مارس (١١ ربيع الثاني) حتى وادي الشايب ثم العرمة ثم بئر العجفية وهي مصدر المياه الوحيد على الطريق بين الرياض والهفوف واستراحت القافلة بجوار هذه البئر ليوم ونصف يوم تسقى أغنامها وتمت صفقات بيع جمال بين القافلة وبني مرة وبني قحطان المقيمين في نفس المنطقة.

تحركت القافلة من العجفية يوم ٣ أبريل (١٥ ربيع الثاني) متجهة شرقاً وبعد ساعة وصلت إلى كثبان الدهناء العالية ـ تبدل سلوك عبد العزيز بعد الخروج من الرياض إذ أخذ يختلس الأرز والسمن الذي أهداه الامام عبد الرحمن لضيفه الدغمركي وأخذ يبذر في المياه وامتدت يده إلى اللحم المخصص لطعام الرحالة وفوق ذلك فقد تعرف بامرأة من بين المسافرين وأخذ يغدق عليها بكرم وشهامة مما يسرقه من مئونة الدغمركي حتى نفدت بكاملها ـ وصلت القافلة إلى الصهان يوم ٤ أبريل (١٦ ربيع الثاني) ثم الربيضة يوم ٥ أبريل وخيمت في وادي الشعاب وفي الليل اشعل الرجال المتوجهون للعمل في صيد اللؤلؤ ناراً عظيمة وأخذوا يرقصون حولها

ويغنون وفي أيديهم البنادق المشحونة بالذخيرة مما أدى إلى انطلاق الرصاصات كيفما اتفق في جميع الاتجاهات وأصبح المخيم مغلفاً بدخان البارود، تركت القافلة الشعاب إلى وادي فارق الكثيف الاعشاب وعندما خرجت منه إلى تلة رملية قابلتهم جماعة من راكبي الإبل فهرع كل انسان إلى سلاحه ودفعت دواب الأمتعة والنساء وكبار السن والأطفال إلى خلف التلة وتقدم حملة البنادق في اتجاه القادمين وأخذ صيادو اللؤلؤ ينشدون أنشودة حرب واندفعوا شاهرين سيوفهم وسكاكينهم مما جعل الجماعة القادمة تعلن إشارة السلام رغم تفوقها في عدد البنادق ــ وصلت القافلة إلى نائلة ثم وادي باب ثم رأس سيد حيث وجدت بقايا حيوانات وآثار معركة قريبة بين البادية والقوات التركية من الهفوف قتل فيها قائد البادية ودفن في تلة على اليمين أصبحت القافلة على مشارف الهفوف وأمضت ليلة ٧ أبريل في وادي جو واستأنفت السير في الصباح إلى الهفوف مروراً بأول قشلة تركية وعبرت بوابة البلدة إلى الركن الشمالي حيث تقع مباني الحكومة.

نزل الدغركي في أحد الأبنية الحكومية وهو في حالة إعياء تام وعامله الجنود الأتراك بعناية وكرم فائقين، بينما ذهب عبد العزيز وأخوه إلى منزل القوافل ــ قام بجولة في الواحة في صحبة عباس حلمي بك الحاكم العسكري للأحساء وتمتع بكرم ضيافته، وزار السجن الذي يضم اللصوص والقتلة وقد ثبتت الاغلال في أعضائهم ذلك لأن الهفوف وما حولها تغص بالعصابات التي تهاجم الواحة في وضح النهار وتسرق الأغنام والحمير والجمال وفي أوقات السوق بل طوال النهار يجوب الجنود الأتراك السوق ويعرف الجميع أن هذه الهجمات مصدرها الرياض التي لم تنس أن الأحساء تابعة لها.

تحدد رحيل الدغركي إلى البحرين يوم ١١ أبريل (٢٣ ربيع الثاني) ولم يعلن شيء عن سفره حتى لا يتسرب النبأ إلى اللصوص فيخططوا لمهاجمته وفي الرابعة من مساء ذلك اليوم استدعى خمسون فارساً من الجنود الأتراك ليكونوا حرسا مرافقا له في رحلته ــ وصلت القافلة الجديدة إلى بلدة الحصول ثم الحفر حيث نزلوا ضيوفاً لدى شخصية عربية معروفة هناك.

وفي صباح ١٢ أبريل تحركت إلى الحيسا ثم رأس العلى حيث تناثرت بقايا معركة جرت بين عصابات البادية وقافلة من ٥٠٠ بعير كانت في طريقها من العقير إلى الهفوف وكان يحرسها الجنود الأتراك ورجال من القبائل ورغم ذلك فقد مزقت شر ممزق ونهبت أكثر البضائع وقتل الكثير من العرب والأتراك ــ وصلت القافلة إلى بئر أبي هيل ثم نخيل سواد ثم صعدت قمة كثبان تنحدر منه الأرض انحداراً شديداً تجاه مياه الخليج الزرقاء وتوجد تحت الكثيب مباشرة قلعة مراقبة تركية على مقربة من بلدة العقير ــ أمضت الجماعة ليلتها في القلعة التركية وعكف الأتراك على شرب الراكي (خمر) لدرجة فقدان الوعي وفي الصباح التالي ركب الدغمركي مركباً عربياً ذا شراع إلى البحرين بعد وداع حار من الأتراك.



الهوامش :

* كان فعلاً آخر رحالة أوروبي يعبر الجزيرة العربية على ظهر البعير وإن كان الكابتن شكسبير عبر الجزيرة عام ١٩١٤م (١٣٣٢هـ) على ظهر البعير وكذلك فيلبي عام ١٩١٧م (١٣٣٥هـ)، فإنهما لم يكونا رحالتين بل كانا مبعوثين سياسيين من قبل حكومتيهما إلى الملك عبد العزيز، وسافرا في حماية الحراسة المسلحة وفي رعاية الملك عبد العزيز لإنجاز مهام سياسية في ظروف معينة بخلاف الرحالة رونكاير الذي جاء منفرداً في مهمة علمية وسافر في صحبة القوافل العادية التي تتولى حماية نفسها بنفسها ــ إلى أرجاء بعيدة في الجزيرة العربية ومجهولة له تماماً ــ يشاهد ويدون المعلومات الطبيعية والجغرافية والإجتماعية.

(١) من قبائل أهل العراق التي تعيش بين البصرة وبغداد ونظراً لتحسن العلاقات مع شيخ الكويت فقد توغلت إلى قرب أراضيه.

(٢) هو الشيخ مبارك بن صباح بن جابر بن عبدالله بن صباح من عنزة ــ ولد عام ١٢٥٤هـ الموافق ١٨٣٨م ــ تولى حكم الكويت عام ١٣١٣هـ بعد أن قتل أخويه محمداً وجراحا واستمر في حكم الكويت حتى وفاته ١٣٣٤هـ الموافق ١٩١٥م (الاعلام للزركلي).